Gleams of Islamic Civilization
Vol.1, No.1, September 2024, 263-288
(DOI) 10.22034/SIC.2024.444462.1088

Testing the Validity of al-Yaʿqūbī's Theory of People's Conformity and Its Impact on their Lifestyle: An Analytic Study

Zeynab alsadat Hosseyni Kashani[1]
Mohammad Taghi Zakeri[2]

(Received: 2024 February 17; Accepted: 2024 May 10)

Abstract

Aḥmad b. Abī Yaʿqūb, known as al-Yaʿqūbī, was one of the first historians and geographers of the third century AH. In his brief treatise entitled "People's Conformity to Their Eras," he proposes a theory stating that Muslims, in their beliefs, individual and social actions, and behaviors, follow the doctrine of their caliphs and kings, adhering to their path without deviating from their morals, actions, or words. This was during a time when the enlightenment movement of the Shiite imams was prevalent, and al-Yaʿqūbī himself was one of their scholars and virtuous individuals. Based on this context, the study seeks to answer a pivotal question: Given the broad activities of the Shiite imams and the nonconformity of their followers to ruling power, is al-Yaʿqūbī's theory correct? This study attempts to shed light on the elements, components, and variables of his theory, and to address the historical evidence included in his treatise. The goal is to reveal that although al-Yaʿqūbī was unable to explain all changes and developments solely by focusing on the caliphs, particularly the Umayyad and Abbasid caliphs, he highlights an important observation about the relationship between Muslims and the successor of the Prophet: the caliph is seen as the Prophet's successor. Just as the Prophet is considered a role model for all Muslims, the caliph is also seen as a role model, except when this belief undergoes change and development. It becomes evident that the activities and actions of the Shiite imams were aimed at fostering this development and change, and challenging the legitimacy of the ruling system.

Keywords: validation, al-Yaʿqūbī's theory, conformity, lifestyle, people's resemblance to the caliphs.

1. PhD student in Twelver Shia History, University of Religions and Denominations, Qom, Iran. (Corresponding Author) Email: z.sadat.h.kashani@gmail.com
2. Professor, Department of History and Faculty Member at the University of Religions and Denominations, Qom, Iran. Email: mt.zakeri@urd.ac.ir

أضواء الحضارة الإسلامية
المجلد ١، العدد ١، ربيع و صيف ١٤٠٣هـ. ش/ ٢٠٢٤ م، ص ٢٦٤ - ٢٨٨

اختبار مدى صحة نظرية مشاكلة الناس لليعقوبي وأثرها على نمط حياة الناس

دراسة تحليلية

زينب السادات حسيني كاشاني[١]، محمد تقي ذاكري[٢]

[تاريخ الوصول: ١٤٠٢/١١/٢٨هـ.ش؛ تاريخ القبول: ١٤٠٣/٠٢/٢١هـ.ش]

الملخص

يعد أحمد بن أبي يعقوب المشهور باليعقوبي، من المؤرخين والجغرافيين الأوائل في القرن الثالث للهجرة. فهو في رسالة وجيزة معنونة بمشاكلة الناس لزمانهم، يطرح نظرية جديدة تنص على أن المسلمين في معتقداتهم، وتصرفاتهم الفردية والاجتماعية وسلوكياتهم، يذهبون مذهب خلفائهم وملوكهم، ويسلكون سبيلهم، ولا يخرجون عن أخلاقهم وأفعالهم وأقوالهم؛ في حين أن النهضة التنويرية لأئمة الشيعة كانت سائدة في تلك الحقبة التاريخية، وأن اليعقوبي نفسه كان من علمائهم وفضلائهم. تأسيسا على ذلك، تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن سؤال محوري، هو: نظرا إلى النشاطات والفعاليات الواسعة لأئمة الشيعة وتمرد أتباعهم على نظام الحكم، فهل تكون نظرية اليعقوبي صحيحة أم لا؟ تحاول هذه الدراسة أن تلقي الضوء على عناصر نظريته ومكوناته ومتغيراته، وأن تتطرق إلى الشواهد والأدلة التاريخية التي تضمها رسالته الوجيزة، حتى تميط اللثام عن أن اليعقوبي، على رغم أنه لا يقدر، بمجرد التركيز على الخلفاء وخاصة الخلفاء الأمويين والعباسيين، على تبيين جميع التغيرات والتطورات الاجتماعية في تلك الفترة، إلا أنه يوجه اهتمامنا إلى ملاحظة مهمة تصدر من العلاقة بين المسلمين وخليفة رسول الله، هي: أن الخليفة هو خليفة رسول الله؛ فكما أن الرسول يعتبر أسوة وقدوة للمسلمين كلهم، فيكون الخليفة أسوة وقدوة لهم أيضا، إلا في موضع واحد، هو أن يتعرض هذا المعتقد للتغير والتطور. وتبين أن أنشطة أئمة الشيعة وأعمالهم قد كانت على امتداد إيجاد هذا التطور والتغير والطعن في شرعية نظام الحكم.

الكلمات المفتاحية: اختبار مدى الصحة، نظرية اليعقوبي، مشاكلة الناس، نمط الحياة، مماثلة الناس للخلفاء

---

١. طالبة الدكتوراه في قسم تاريخ التشيع الاثني عشري، جامعة الأديان والمذاهب، قم، إيران. (الكاتبة المسؤولة) z.sadat.h.kashani@gmail.com
٢. أستاذ في قسم التاريخ، جامعة الأديان والمذاهب، قم، إيران. mt.zakeri@urd.ac.ir .

١. المقدمة

يعد توجيه نمط الحياة الصحيح للناس وتبيين أثره في الحضارة الإسلامية، من الاهتمامات الرئيسة في مسار تأسيس الحضارة الإسلامية الحديثة. لا يساورنا شك في أنه هناك عوامل وأسباب كثيرة في صياغة نمط الحياة لدى الناس، من أهمها مواكبتهم للظروف والملابسات السائدة في مجتمع عصرهم.

من هذا المنطلق، يسعى القزويني، المؤرخ والبلداني في القرن الثالث ـ أن يطرح نظرية جديدة في كتاب مشاكلة الناس لزمانهم، ويحرص على إثبات أن نمط حياة الناس يماثل نمط حياة خلفائهم وملوكهم. في الحقيقة، فإن نظرية اليعقوبي، و إن صارت معززة بالشواهد والأدلة المنطقية، إلا أنها تنطوي على تحديات نظرية وأسئلة جوهرية تحتاج إلى الإجابة من خلال تسليط الضوء على مدى صحة هذه النظرية، بالاعتماد على الدراسة التاريخية للفترات المختلفة التي قد أشار اليعقوبي إليها.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، لقد وردت عبارة مشهورة في الكتب والمصادر الروائية والتاريخية، هي: «الناس على دين ملوكهم» (المجلسي، ١٤٠٤هـ، ج ٧، ص ١٠٢؛ الإربلي، ١٣٨١هـ، ج ٢، ص ٢١). فهذه العبارة، وإن لم تذكر كرواية في المصادر الروائية، إلا أنها جرت مجرى الأمثال السائرة بين الناس، وأن بعض الروايات والآيات المشابهة تعضدها، نحو قول الإمام علي (عليه السلام)، حيث يقول: «الناس بأمرائهم أشبه منهم بآبائهم» (١٣٨٤هـ، ص ٢٠٨).

هنا، يبادر الذهن، سؤال جوهري، هو: هل حاول اليعقوبي تبيين نظرية اجتماعية جامعة يمكن تطبيقها على كل العصور المختلفة والظروف المتنوعة، أم صب اهتمامه فقط على وصف أوضاع زمانه المتمثلة في تماثل الناس العاديين لخلفائهم وأعيانهم؟ وتتفرع من هذا السؤال الرئيس، أسئلة فرعية أخرى، نحو: هل يذهب الناس مذهب خلفائهم ونخبهم السياسية فقط أم تتنوع العوامل والعناصر الإنسانية وغير الإنسانية المؤثرة في نمط حياتهم؟ وما العوامل المؤثرة في نمط حياة الناس؟ وما

العوامل التي تدير كيفية تفاعل الناس مع العالم المحيط بهم؟ وكم نطاق ومدى تأثير هذه العوامل والأسباب؟ تهدف هذه الدراسة إلى كشف الستار عن أبعاد وجوانب عملية التأثير والتأثر في هذا المضمار.

جدير بالذكر، أن اليعقوبي في كتابه، قد حدد الخطوط العريضة لنظريته، وأهمل بنية تلك النظرية والمتغيرات الفعالة فيها، في حين يكون الحصول على المتغيرات الرئيسية والمباشرة للنظرية هاجسا عند الباحثين، وذلك بسبب إمكانية تطبيق هذه النظرية على جميع العصور التي تتوافر فيها هذه المتغيرات. يبدو أنه توجد هناك الدوافع والأفكار الخفية التي تهدف إلى إيجاد التغيرات التحتية في آراء الناس ورؤاهم من خلال السلوكيات الظاهرة للحكام وإشاعتها بين الناس؛ هذا بينما أن اليعقوبي قد أغفل هذه الدوافع والأفكار. دون شك أن تحويل موقف الناس من الشؤون اللامادية إلى المادية، ومن الحياة الاجتماعية إلى الاهتمام بالمصلحة الذاتية والرفاهية الشخصية، وتبديل الشعور بالمسؤولية الجماعية إلى الاهتمام بالمصالح الشخصية، والانهماك في المظاهر والملابس والهندسة المعمارية، كلها كانت فخا قد تجاهله اليعقوبي في دراسة وتحليل الأوضاع الثقافية والاجتماعية وإعراض الحكومات عن ذلك بشكل متعمد.

إن الملحوظة المهمة الأخرى في الفترة الزمنية المدروسة لدى اليعقوبي، هي دور أئمة الشيعة في تلك الفترة وردود أفعالهم، باعتبارهم من أهم الجماعات والفرق المؤثرة في المجتمع، بعملية التأثير والتأثر المذكورة. فإن قبول هذه العملية، بوصفها جبرا اجتماعيا أو اتخاذ تدابير لازمة لإدارتها، أو شكل آخر لمواجهة الأئمة حيال هذا الموضوع، من الاحتمالات المطروحة في هذا الصدد. من اللافت أن معرفة إستراتيجية مواقف أئمة الشيعة من مواجهة نمط حياة الخلفاء وكيفية إدارتهم ومواجهتهم لهذا الموضوع، مسألة مهمة لم يسترع اهتمام الباحثين في هذه الدراسة.

تكمن أهمية الدراسة في أنها تسعى. نظرية وعملية. إلى استكشاف أثر كيفية نمط حياة الحكام والخلفاء على الناس، وتهدف إلى باثولوجيا وإدارة التيارات الثقافية والمتغيرات الاجتماعية الفعالة في نمط حياة مجتمع اليوم. فنظرا إلى ظهور التيارات المتوازية نحو الغزو الثقافي، فيمكن أن تكون نتائج هذه الدراسة المتواضعة مفيدة للمدراء والمسؤولين في الحقل الثقافي.

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن الأسئلة التالية، وذلك عبر المنهج الوصفي. التحليلي، وبالاعتماد على المصادر الببليوغرافية والبرامج المتعلقة بالموضوع: ما المتغيرات الفعالة والمباشرة في مدى صحة نظرية مشاكلة الناس لزمانهم لليعقوبي؟ ما مكانة قوة الخليفة وسلطته ونفوذه واستمراره في السلطة على أساس نظرية اليعقوبي؟

١-١. خلفية البحث

توجد هناك. قدر علمنا. مقالتان حول نظرية مشاكلة الناس لزمانهم، كتبهما الدكتور منتظري مقدم، وأصدرهما في فصلية تاريخ در آينه، العدد ١ و٢. تناول المؤلف في المقالتين، الكتاب المدروس من الناحية الداخلية والخارجية. فمن الناحية الخارجية، اهتم الباحث بدراسة شخصية اليعقوبي، باعتباره مؤلف الكتاب، ثم تناول أقوال الآخرين حول هذا الكتاب. نستنتج من أقوال المؤلف أن هذا الكتاب لم يكن محط اهتمام المؤرخين المتقدمين على نطاق واسع، حيث ما أشار إليه إلا الياقوت الحموي، وأن الباحثين المتأخرين ما أشاروا إلا إلى صغر حجم الكتاب وسنة طبعه.

بعد ذلك، تصدى المؤلف للكتاب من الناحية الداخلية. ففي بدء الأمر، أشار إلى الخصائص الظاهرية للكتاب نحو عدد صفحاته، ثم تناول أسلوب كتابة الكتاب، ثم تطرق إلى محتواه التاريخي، وأخيرا، سلط الضوء على نظرية مشاكلة الناس للخلفاء

والحكام. مهما يكن من شيء، تناولت هاتان المقالتان القيمتان كيفية كتابة الكتاب والوثائق والمستندات الموجودة فيه، إلا أنهما أغفلتا ملحوظة مهمة، هي مدى أثر الحكام والخلفاء في هذه النظرية؟

٢. اليعقوبي وكتاب *مشاكلة الناس لزمانهم*

إن اليعقوبي، المؤرخ الشهير في العصر العباسي (م بعد ٢٩٢هـ)، ترك آثارا ومؤلفات عديدة، منها: كتاب مشاكلة الناس لزمانهم. في هذا الكتاب، فاهتمام اليعقوبي بالعامة، إلى جانب اهتمامه بالخاصة، يخلق توقعا بأنه قد اتبع في كتابة التاريخ نهجا، لا يعكس أخبار الحكماء والخلفاء فحسب، بل يولي اهتماما بالغا لتاريخ الناس أو السوقة أيضا، وخاصة حين نعلم أنه كان مولعا ولعا شديدا بالجغرافيا، حيث يعتبر كتابه البلدان، من أول المصادر الجغرافية للبلاد الإسلامية وأهمها. ونتيجة لذلك، فليس بعيدا عن الذهن أنه قد وضع الأحداث التاريخية في مثلث ثلاثي الأضلاع: الحاكم، والناس، والبلاد. فكما عندما نواجه رسالة مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر، يخطر بالبال أن المؤلف يحرص على توافر علاقة ثنائية ومستمرة بين العنصرين: العصر، والناس. فهذا يعني أن الناس هم الذين يخلقون عصرا جديدا لم يسبق له مثيل من قبل، وأن هذا العصر الجديد يكون مصدر تكون وتطور الاتجاهات والسلوكيات الجديدة لدى الناس، حتى تتحقق في النهاية المشاكلة بشكل ثنائي بينهما.

ولكن بخلاف التوقع، فعندما نرجع إلى الكتاب، نرى أن العلاقة بين الناس والزمان قد تحول إلى العلاقة بين الناس والطبقة الحاكمة. في السياق نفسه، تحاول الرسالة تبيين أن الناس في كل عصر، يماثلون حاكمهم أو خليفتهم، ويسلكون مسلكه، ويقتفون أثره، حيث لا يخرجون عن أقواله وأفعاله وأخلاقه.

من اللافت أن اليعقوبي لا يهتم بالعوامل التي تغير خصائص الحكام والخلفاء، أو العوامل التي توفر الأرضية لظهور هذه الخصائص، كما أنه لا يهتم بالعوامل التي تخلق قوى معادية تناهض التيار السياسي الحاكم، وتعارض سلوكيات الحكام والخلفاء. ولكن لا يمكن أن نتجاهل أن هذا الكتاب كان أول محاولة لفهم العلل والأسباب النفسية والاجتماعية لظهور الأحداث التاريخية، والتي صار محط اهتمام ابن خلدون في العصور التالية. في تعبير آخر، فكان هذا الكتاب أول خطوة تم اتخاذها من قبل القدماء، وتم التركيز فيها على أحد العوامل المهمة في ظهور الظواهر الاجتماعية، وهو السيادة والسلطة السياسية والعسكرية.

مما يسترعي الانتباه أن اليعقوبي. كما يتبين من فحوى الكتاب المدروس. كان قد ورث التشيع من أسلافه؛ ومرجع ذلك أن قد أشار في مواضع متعددة من كتابيه، يعني البلدان وتاريخ اليعقوبي، إلى تشيعه وحبه لآل البيت، منها أخباره عن السقيفة، وسلوكيات الخلفاء وذكر خلافة الإمام علي، الأمر الذي يعكس تشيعه، ولو بدرجة متوسطة (جعفريان، ١٣٨٠هـ.ش، ص ١٢٠).

٣. الإطار العلمي لنظرية مشاكلة الناس لزمانهم

يمكن دراسة موضوع علاقات الناس أو المجتمع مع خلفائهم وحكامهم، من الجوانب المختلفة وفي أطر علمية متعددة منضبطة. منذ الأزمنة القديمة، نلاحظ أن الفلاسفة والمفكرين الكبار، نحو أرسطاطاليس (أرسطو، ١٣٦٤هـ.ش، ص ٢٥٢)، وأفلاطون (أرجيني، ١٣٨٤هـ.ش، د.ص)، قد صبوا اهتمامهم على كيفية علاقات المجتمع مع حكامهم وملوكهم، وأن السياسة في معناها العام، كانت تهدف إلى العثور على إجابة عن ماهية هذه العلاقات وكيفيتها وتقديم نسخة مطلوبة في هذا المجال (فلاح رفيع، ١٣٨٣هـ.ش، ص ١١)؛ زد على ذلك، عندما نصل إلى العصور الوسطى والعصر الحديث، نرى أن أسئلة كهذه قد

شغلت بال العلماء والفضلاء في مجال العلوم الاجتماعية أيضا. ونتيجة ذلك، فإن مسألة مشاكلة الناس لزمانهم تقع في مجال العلوم الاجتماعية، إلا أن النطاق التاريخي للشواهد التي يتمسك بها اليعقوبي، تدفع المستندات والوثائق والمصادر إلى مجال التاريخ؛ ذلك لأن هذا السؤال يمكن أن يطرح في كل من الشواهد التي تلجأ إليها اليعقوبي، وهو: عندما يشير اليعقوبي إلى فترة حكم خليفة من الخلفاء العباسيين أو الأمويين أو الراشدين، ويبين خصائص ذلك الخليفة وملامحه، هل قد تميزت هذه الخصائص بميزة حقيقية وتاريخية أم قد ظهرت نتيجة للدعايات أو الإعلام أو العصبيات أو الضغوط الحكومية؟ فعلى سبيل المثال لا الحصر، يقول اليعقوبي حول المهتدي، الخليفة العباسي:

«ثم ولّي المهتدي، وهو محمد بن الواثق، فذهب إلى القضاء في الدين، وجلس للمظالم، ووقّع بخطه، وقرّب الفقهاء، وكان يقول: يا بني هاشم، دعوني أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز، فأكون فيكم مثله في بني أمية، وتقلل في اللباس والفرش» (١٩٩٣م، ص ٢١٠).

هنا، يخطر ببالنا سؤال، هو: هل كان المهتدي في الواقع كذلك؟ هل كان للضغوط والدعايات الحكومية دور بارز في رسم هذه الصورة الإيجابية للخليفة أم لا؟ كيف يمكن أن نفهم أن الخليفة كان يفعل مثل هذه الأعمال من باب النفاق أو الرياء أم من باب اعتقاد قلبي؟ هل انحصرت أعمال الخليفة في ما تم إتيانه أعلاه أم كان قسما مختارا منها؟

بما أن اليعقوبي كان من رواد المؤرخين، فما كان يرى ضرورة في تقديم المستندات والوثائق في إثبات مثل هذه المقولات؛ مما يدعم قولنا، هو أننا حين نلقي نظرة تأملية على كتابه في التاريخ، نلاحظ أنه يكتفي بوصف الأحداث والشخصيات التاريخية، دون أن يعززها بالمستندات والوثائق الموثوقة. في تعبير آخر، فإن كتابه يطغى عليه طابع وصفي؛ بذلك لا مندوحة لنا من أن نثق به، بوصفه مؤرخا، مستدلين بأنه ـ دون شك ـ قد درس الشواهد والأدلة التاريخية، ونقدها بغرض التحقق من صحتها، وفي نهاية المطاف، اختار ما كان متوافقا مع الشواهد والأدلة الأكثر ثقة واعتمادية.

وأما بخصوص الوجه الآخر للمعادلة، يعني الناس وخصائصهم في كل فترة تاريخية، فلا بد لنا من الاعتماد على تقريرات اليعقوبي وأقواله. فعلى سبيل المثال، يقول: «وكان المعتز، وهو أبو عبد الله بن المتوكل، أول خليفة ركب بحلية الذهب، وكانت الخلفاء تركب بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف والسروج واللجم، فلما ركب بحلية الذهب، اتبعه الناس على ذلك» (المصدر نفسه، ص ٢٠٩).

هنا، تخطر بالبال بعض الأسئلة، ومنها: هل كان الناس العاديون في تلك الفترة غارقين في الثروات الهائلة، حيث كانوا يرصعون السيوف والمراكب وغيرها بأصناف مختلفة من الحلى والجواهر أو المراد بالناس في هذه الرواية أعلاه، هم حاشية الخليفة وأقرباؤهم؟ فإن كان المراد بذلك، هو الطائفة الثانية دون الأولى، فهل كانت هذه العادة الأرستقراطية شائعة بينهم أم لا؟ فإن كانت الإجابة نعم، فهل يمكن أن ندعي أن سلوك الخليفة له أثر مباشر على السوقة أو العامة أم لا؟ أو هل يمكن أن ندعي أن الناس كانوا يذهبون مذهب الخليفة ويسلكون مسلكه أم لا؟

في الحقيقة أن دعوى اليعقوبي في مجال مشاكلة الناس لزمانهم دعوى عامة. فهو، وإن صرح بأن حاشية الخليفة ورجال دولته يقلدون سلوكياته في الوهلة الأولى، ثم أن السوقة يبدأون بتقليد سماته واهتماماته الشخصية، إلا أنه أغفل تحديد الطبقات والجماعات التي تولع بمتابعة السمات الشخصية للخليفة. ولعل مرجع ذلك أن بعض السلوكيات والتصرفات مثل هذه السلوكيات الأرستقراطية تشيع بين الطبقات العليا فقط، وليست الطبقات الدنيا؛ فنتيجة لذلك، فيجب أن نقوم أنفسنا بتقييد مدلول لفظة «الناس» على أساس قرينة خارجية. بعبارة أدق، يجب أن نقول إن اليعقوبي عندما يتحدث عن النزعات الأرستقراطية عند الناس، فمراده بلفظة الناس هي الطبقة التي كانت قادرة على إظهار التصرفات الأرستقراطية. انطلاقا من ذلك، فهل تنطبق هذه النظرية على الطبقة العليا في المجتمع فقط؟ في حين أنه يدعي أن الناس في كل عصر زمني، يذهبون مذاهب

حكامهم وخلفائهم ولا يخرجون عن أخلاقهم وأفعالهم وأقوالهم ويماثلونهم. على أساس ذلك، فيتعين علينا أن نلقي الضوء على هذه النظرية في إطار علم الاجتماع التاريخي (منتظري مقدم، ١٣٨٣هـ.ش، ص ١٨٧).

ولكن إذا قبلنا أنه وجّه معظم اهتمامه نحو وضع الطبقة العليا دون الطبقة الدنيا، فتتسم رسالته بالناحية التاريخية ووصف الطبقة العليا المتأثرة بالخليفة، أكثر من أن تمتاز بناحية علم الاجتماع التاريخي. بعد نظرة بانورمائية على الرسالة، يتبين لنا أن لفظة «الناس» في نص الرسالة تدل في بعض المواضع على الطبقة العليا. ولكن أن هذه الطبقة الأرستقراطية ليست طبقة وحيدة استقطب اهتمام اليعقوبي فحسب، بل نراه يشير إلى ملابس السوقة، يقول: «وكان المستعين، وهو أحمد بن محمد بن المعتصم، وكان أول خليفة وسّع أكمام الثياب، فجعلها ثلاثة أشبار ونحوها، وصغّر القلانس وقصّرها» (١٩٩٣م، ص ٢٠٩).

زد على ذلك، نلاحظ أنه يشير إلى شغف المأمون الشديد بالعلم، يقول:

> وكان المأمون أمير المؤمنين بن الرشيد، فكان في أول خلافته يغلبه الفضل، يستعمل النجوم والنظر فيها، ويذهب مذاهب ملوك الفرس، ويشتهي قراءة الكتب القديمة. فلما قدم العراق اطّرح ذلك، وأظهر القول بالعدل والتوحيد، وجالس المتكلمين والفقهاء والأدباء، وأقدمهم من البلدان، وأجرى لهم الأرزاق، فكثر المتكلمون في أيامه، ووضع كل امرئ كتابا ينصر قوله، ويرد على من خالفه (المصدر نفسه، ص ٢٠٦).

مضافا إلى ذلك، أنه يتحدث عن الدور البارز للمنصور العباسي في ظهور حركة الترجمة في العصر العباسي، يقول: «كان أول خليفة ترجم الكتب العجمية ونقلها إلى اللسان العربي، وفي أيامه ترجم كتاب كليلة ودمنة ... وسائر الكتب العجمية في النجوم والحساب والطب والفلسفة وغير ذلك» (المصدر نفسه، ص ٢٠٣).

وها هو يقول عن الوليد بن يزيد، الخليفة الأموي: «وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء، وهو أول من حمل المغنين من البلدان إليه، وجالس الملقبين، وأظهر الشراب والملاهي والعزف» (المصدر نفسه، ص ٢٠٢).

تأسيسا على ذلك، نلاحظ أن البدع أو الإبداعات أو اهتمام الخليفة، كان لها دور بارز في تأثر الطبقة العليا، أو أهل العلم، أو العسكريين، أو رجال الأعمال، أو التجار، أو السوقة (العامة) بالخليفة، وأن هذا التأثير كان يعود أحيانا إلى سلطة الخليفة وقوته السياسية والاجتماعية، وأحيانا أخرى إلى القوة القاهرة التي كان يتحلى بها الخليفة؛ فمثلا يقول اليعقوبي عن الواثق بن المعتصم: «كان مذهبه في الدين والقول بالعدل على مذهب أبيه المعتصم وعمه المأمون. وأظهر ذلك وامتحن عليه، وعاقب من خالفه، وحبس من أبدى عنادا فيه» (المصدر نفسه، ص ٢٠٩).

من هذا المنطلق، يجب قبول أن نظرية اليعقوبي في مشاكلة الناس لخلفائهم وحكامهم، تقع في إطار علم الاجتماع التاريخي، وليست في مجرد إطار الأوصاف والتقارير التاريخية؛ ذلك لأنه قد أورد هذه الأوصاف والتقارير لإثبات دعوى قد أفصح عنها في مقدمته رسالته. يقول اليعقوبي في مقدمة الرسالة: «إن المسلمين في كل عصر تبع للخليفة، يسلكون سبيله، ويذهبون مذاهبه، ويعملون على قدر ما يرون منه، ولا يخرجون عن أخلاقه وأفعاله وأقواله» (المصدر نفسه، ص ١٩٥).

٤. منهجية اليعقوبي في نظرية مشاكلة الناس لزمانهم

كما تقدم ذكره آنفا، فعندما يلجأ اليعقوبي إلى إيراد التقارير التاريخية حول السمات الشخصية للخلفاء واهتماماتهم بالعلوم والموسيقى واللبس، ورغبتهم في الزهد أو البذخ والتبذير، نفترض أنه كان صادقا في نقله، كما أنه عندما يتحدث، عن اقتفاء الناس أثر

الخليفة، نفترض أنه كان صادقا في تقاريره أيضا؛ ذلك لأنه لا يقدم أي وثيقة أو مصدر لتعزيز تقاريره، وأنه يكتفي بالبيانات الوصفية دون تحليلها ودراستها. من المتوقع أن اليعقوبي عندما يطرح نظرية ما، يتوجب عليه أن يقدم الشواهد والأدلة الكافية لإثبات وجهة نظره، وأن يبين لماذا يعتقد أن التغيير في سلوك الناس يرجع إلى التغيير في سلوك خليفتهم.

يلجأ اليعقوبي إلى الدراسة والتحليل في المرحلة التالية. فهو يورد التقارير التاريخية كدليل لإثبات مشاكلة الناس للخلفاء والحكام، حتى يقدم نظرية عامة حول المجتمع الإسلامي قائلا: إن المسلمين تبع للخليفة، وإن هذه التبعية تعتمد على مكانة الخليفة وموضعه ومدى قوته وسلطته، حيث تظهر أحيانا بصورة طبيعية، مثل ما نشهد عند الخلفاء الراشدين (خطيب، ١٣٩٤هـ.ش، ص ٢٩)، وأحيانا أخرى بصورة قهرية. ففي مثل هذه التقارير، يقدم اليعقوبي وصفا عاما للخلفاء والحكام، دون الإشارة إلى التفاصيل والدقائق. فعلى سبيل المثال، يقول عن عمر بن الخطاب: «كان عمر بن الخطاب تعالى مع تواضعه وخشونة ملبسه ومطعمه، شديدا في ذات الله» (١٩٩٣م، ص ٢٠٩). إن القول بتواضع عمر بن الخطاب وزهده، وحرصه على خشونة ملبسه ومطعمه، وتشدده في القضايا الدينية، كلها وردت مع فرق يسير في مختلف المصادر التاريخية والحديثية (الشيخ المفيد، ١٤١٣هـ، ص ١٧٦؛ المسعودي، ١٤٠٩هـ، ج ٢، ص ٢٩٨؛ البلاذري، ١٣٩٧هـ، ج ١٠، ص ٧٠؛ الزمخشري، ١٤١٧هـ، ج ٤، ص ١٢).

تعد هذه المقولات في علم المنطق من جملة المشهورات. لقد جاء في التعريف بالقضايا المشهورة: «هي قضايا اشتهرت بين الناس وذاع التصديق بها عند جميع العقلاء أو أكثرهم أو طائفة خاصة» (المظفر، ١٣٧٧هـ.ش، ص ٣٠٣). يعني أن هذه المقولات أو القضايا تتسم بالموثوقية والمصداقية، مجرد أن يقبلها عامة الناس ويصدقونها. في تعبير آخر، فإن قبول المقولة وتصديقها يعتمد على المخاطبين. فمثلا إذا كان المخاطبون من اليونان، فتعد المقولات التي يقبلها الجمهور اليوناني، مشهورات وليست غيرها؛ بذلك يجب أن نتحدث عن مشهورات أهل السنة، أو مشهورات الشيعة، وما شاكل ذلك. من البديهي أن المشهورات

ليست لها خاصية استكشاف الواقع؛ فهذا يعني أن المشهورات، لا يتم التصديق بها بسبب أنها تشير إلى واقع خارجي أو مفهوم يقيني وقطعي، بل يتم التصديق بها بسبب أنها تحمل مفهوما يقبلها الجمهور.

بعبارة أدق، فإن المشهورات ليست بالضرورة صادقة، بل تكشف عن اتفاق عام، يتجلى بوضوح في نظرية اليعقوبي التي تنص على مشاكلة الناس لزمانهم. انطلاقا من نظريته المشهورة، أن الناس يرسمون صورة ذهنية من الخليفة. واقعية كانت أم وهمية. تؤدي إلى تأثيره كقوة رمزية على المزاج العام وروح المجتمع. في الحقيقة، أن الناس العاديين لا يدرون شيئا عن واقع الخليفة، بل يتوقفون عند صورة ذهنية ترسم منه، ويتأثرون بها. انطلاقا من ذلك، فليس من المقرر أن تكون تقارير اليعقوبي حول الوضع الأخلاقي أو السلوكي للخلفاء صادقة وحقيقية، وإنما هي مجرد مشهورات قد شاعت بين حشد كبير من الجمهور وطبقاته المختلفة.

ولكن عندما نرجع إلى تقاريره حول تأثر الناس العاديين ومتابعتهم للخلفاء والحكام، لا يجوز أن نكتفي بالمشهورات. فهنا نحن بحاجة ماسة إلى المقولات التي تكشف الستار عن واقع خارجي كامن في أن الجمهور تأثروا تأثرا شديدا بخلفائهم وحكامهم وحرصوا على متابعتهم. هنا، لا مندوحة لنا إلا أن نعتمد على أقواله وتقاريره، وخاصة أنه في كتاب البلدان، يشير إلى منهجه في جمع تقاريره التاريخية، يقول: «فلم أزل أكتب هذه الأخبار وأؤلّف هذا الكتاب دهرا طويلا، وأضيف كل خبر إلى بلده، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندي معرفته» (١٤٢٢هـ، ج١، ص٩).

تأسيسا على ذلك، فنراه يتبع منهجا علميا وموثوقا به في الوقوف على أوضاع الناس وأحوالهم. فهو أولا يجمع المعلومات والبيانات من الأشخاص الموثوق بهم، ثانيا يعمد إلى تصنيفها من حيث مدى الوثاقة بها، ثالثا يقارن بين التقارير الجديدة والتقارير الأخرى، للوصول إلى التقارير الموثوق بها حول أوضاع الجمهور وأحوالهم. من الطريف أن هذا المنهج يتأصل في علم الحديث، ويساهم إسهاما بارزا في تكوين التراث الروائي والحديثي للمسلمين.

زد على ذلك، يتعين علينا أن نولي اهتماما بالغا للغة اليعقوبي وأسلوبه في كيفية تقديم التقارير في رسالته المدروسة؛ ذلك لأنه يحرص على الإيجاز والاختصار فيها، الأمر الذي قد أدى إلى أن تبقى مقاصده تحت ستار وتظل نواياه خفية إلى حد كبير. مما يدعم قولنا، أنه لا يضع شروطا لطاعة الناس لحكامهم إطلاقا؛ فمثلا إن كان الخليفة شخصا غير مثقف، أو غير كفؤ، أو بخيلا وشحيحا، أو قاسيا وعصبيا، فهل تنقل هذه الخصائص إلى الناس العاديين بسرعة أم لا؟ ما أورد اليعقوبي في رسالته، شاهدا يكشف لنا عن حقيقة الأمر بشكل واضح. ولكن عندما نلقي نظرة تأملية على تقاريره التاريخية، نستنتج أن بعض خصائص الخليفة وصفاته ما كانت شائعة بين السوقة.

فعلى سبيل المثال، يقول: «كان محمد المنتصر بن المتوكل ... قليل الخير، كثير الشر، شديد الجهل» (١٩٩٣م، ص ١٩٦)، إلا أنه لا يقول إن الطبقة العليا أو الطبقة الدنيا أو الأمراء أو حاشية الخليفة صاروا قليلي الخير أو شديدي الجهل في فترة حكمه، ولا يشير إلى تقليد الشعب لسمات الخليفة وخصائصه هذه. فالإيجاز الذي يطغى على النص، يقوي احتمال أن اليعقوبي، على رغم أنه ما أشار إلى مدى متابعة الناس للحكام بالتفصيل والتدقيق، إلا أنه أوعز إلى تقليد الجمهور لحكامهم في العقائد، والاهتمام بالعلوم والشعر والفن، واللبس، وجمع المال وتحصيلها، وسفك الدماء والعنف لدى العمال؛ ولكنه عندما يتحدث عن بعض السمات الأخرى للخلفاء والحكام، نحو الجهل أو البخل أو الشحة، أو السخاء، أو التواضع والزهد، فلا يشير إلى انتقالها منهم إلى الطبقتين المتوسطة والدنيا. فمثلا عندما يقول اليعقوبي إن علي بن أبي طالب في مدة خلافته، «لم يلبس ثوبا جديدا ولم يتخذ ضيعة ولم يعقد على مال» (المصدر نفسه، ص ١٩٨)، لا يشير إلى شيوع هذه السمات والميزات بين أمرائه وعمالهم ولا يساعدنا في كشف الستار عن واقع تاريخي إطلاقا؛ ولكن عندما يتحدث عن براعة الإمام العالية في فن الخطابة، يقول: «حفظ الناس عنه الخطب، فإنه خطب بأربعمئة خطبة حفظت عنه، وهي التي تدور بين الناس ويستعملونها في خطبهم

وكلامهم» (المصدر نفسه)، مما يدل كل دلالة على شيوع خطبه وشعبيتها بين الناس.
قصارى القول، فإن اليعقوبي يستفيد من المشهورات في تقاريره عن الخلفاء والحكام، ويعتمد على معلوماته الشخصية في تقاريره عن الناس العاديين، ويلجأ إلى الاختصار والإيجاز في التعبير عن الموضوع المراد، الأمر الذي يجعلنا أن نلجأ إلى القرائن للكشف عن المجهولات في النص.

٥. اختبار صحة نظرية اليعقوبي

تعد النظرية التي يطرحها اليعقوبي، من أقدم النظريات الإسلامية حول المجتمع البشري. ففي الوهلة الأولى، تبدو هذه النظرية عامة ومجملة للغاية، حيث تحتاج إلى أن تقاس بعض متغيراتها. بما أن النظريات في مجال المجتمع الإنساني والسلوكيات الاجتماعية للناس، لها أبعاد واسعة لا مجال لتناولها جميعا، فلابد لنا أن نكتفي بدراسة وتحليل بعض الميزات المهمة لهذه النظرية المدروسة.
قبل أن نتصدى لهذه الميزات، فمن الضروري الإشارة إلى ملحوظة مهمة في مجال التعريف بالفرد والمجتمع. من أهم المفكرين المعاصرين الذين قد تناولوا هذا الموضوع، هو الشهيد مرتضى مطهري، الذي يشير إلى النظريات المختلفة في مجال الفرد والمجتمع، مؤكدا على أن المجتمع يتألف من مجموعة من الأفراد، حيث لا يمكن لمجتمع أن يوجد بغير أفراد، فيقول:
أ. يعتقد الفريق الأول أن تركيب المجتمع من الأفراد تركيب اعتباري، لأن التركيب الواقعي يحدث عند تفاعل عدة عناصر، بحيث تفقد العناصر خصائصها وينتج مركب جديد يحمل صفات مختلفة. إذن فالمجتمع لا يملك وجودا أصيلا وعينيا وحقيقيا؛ ولكن الفرد وحده هو الذي يملك مثل هذا الوجود، ووجود المجتمع لا يعدو أن يكون وجودا اعتباريا انتزاعيا؛ بذلك فهذه النظرية تؤكد على الأصالة الفردية البحتة.

ب. ويعتقد الفريق الثاني أن المجتمع مركب حقيقي، لا كالمركبات الطبيعية؛ ولكنه مركب صناعي. ففي المركب الطبيعي، تفقد الأجزاء خصائصها في الكل المركب، كما تفقد بالضرورة استقلالها في التأثير؛ لكن في المركب الصناعي لا تفقد خصائصها وهويتها، بل تفقد استقلالها في التأثير. وفقا لهذه النظرية، فعلاقة بين الفرد والمجتمع بمثابة العلاقة بين أجزاء السيارة. فإن التعاون والترابط موجود بين أجزائها؛ ولكن هوية الأجزاء غير ذائبة في هوية الكل، فالكل لا يملك وجودا مستقلا عن الأجزاء، بل هو عبارة عن مجموعة من الأجزاء، مضافا إلى الارتباط الخاص بينها. وكذلك فإن المجتمع مكون من مؤسسات أصلية وفرعية بأفرادها مترابطة بعضها مع بالبعض، دون أن يفقد أفرادها هويتهم في المجتمع العام؛ بذلك فهذه النظرية تركز على الأصالة الفردية إلى حد كبير.

ج. كما يرى الفريق الثالث أن المجتمع مركب حقيقي من أنواع المركبات الطبيعية؛ لكنه تركيب بين الأرواح والأفكار والعواطف والتطلعات والإرادات، أي أنه تركيب ثقافي لا تركيب بين الأجسام والأجساد. فإن أفراد البشر يدخلون معترك الحياة بما جهزوا به من قدرات فطرية وقدرات اكتسابية من الطبيعة، فيندمجون روحيا، ويشكلون روحا جديدة يطلق عليها اسم الروح الجماعية. وهذا التركيب تركيب طبيعي فريد لا نستطيع أن نجد له نظيرا. يرى الشهيد مطهري أن هذه النظرية تتوافق مع الآيات القرآنية الكريمة والتعاليم الإسلامية؛ ذلك لأنه يرى أن هذا التركيب ناتج عن تفاعل عناصر متعددة لإنتاج مركب ذي هوية جديدة؛ والوقت نفسه، يختلف عن المركبات الطبيعية في عدم وجود وحدة حقيقية واقعية تنصهر فيها تلك العناصر؛ بذلك فهذه النظرية تجمع بين الأصالة الفردية والأصالة الجماعية.

د. وأخيرا، يرى الفريق الرابع أن المجتمع مركب حقيقي يفوق المركبات الطبيعية؛ ذلك أن أجزاء المركبات الطبيعية لها هوية محددة وخواص معينة قبل التركيب. فعلى أساس هذه النظرية، أن أفراد البشر لا يملكون أي هوية إنسانية قبل الوجود الاجتماعي، وأنهم أوعية خالية مستعدة لقبول الروح الجماعية، وأن إنسانية الإنسان والفكر الإنساني والعواطف الإنسانية

وكل المشاعر والأحاسيس والرغبات والتطلعات والأفكار المرتبطة بالإنسانية تنشأ في ظل الروح الجماعية التي تملأ هذا الوعاء الخالي وتمنح الفرد شخصيته؛ بذلك فهذه النظرية تحرص على الأصالة الاجتماعية البحتة (١٣٧٧هـ.ش، ج ٢، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩).

على أساس ما تقدم ذكره، فإذا نظرنا إلى نظرية اليعقوبي مجددا، نتفطن أنه إذا استطاع شخص ذو مكانة عالية، أن يترك أثرا مباشرا على الروح الجماعية البشرية، فقد أثر بالفعل على كل أفراد ذلك المجتمع. في تعبير آخر، بما أن الهوية الجماعية أو الروح الجماعية تعتبر معيارا رئيسا لتحديد السلوكيات البشرية، فكل شخص عندما يكون قادرا على تغيير هذه الهوية أو الروح الجماعية، يعرف كعنصر فعال في ذلك المجتمع. في هذه الأثناء، توجد هناك بعض عناصر تسهم إسهاما مهما في تكوين الهوية الجماعية والروح الجماعية، وبالتالي لها دور بارز في نظرية مشاكلة الناس لزمانهم لليعقوبي، منها القوة السياسية والعسكرية للخليفة ونفوذه الاجتماعي والروحي، وبالتالي تأثر الناس، وبصفة خاصة المسلمين بالخليفة. فيما يلي، نتطرق إلى هذا الموضوع في النظرية المدروسة.

٦. سلطة نظام الحكم ونفوذ الخليفة الاجتماعي في نظرية اليعقوبي

هنا، نريد أن نلقي الضوء على المحورين الرئيسين: الأول سلطة نظام الحكم ومدى أثرها في نظرية اليعقوبي؛ والثاني مدة دوام الخليفة على القوة والسلطة وأثر ذلك في نظرية المذكورة.

٦-١. القوة وآثارها

يبدو للوهلة الاولى أن القوة يمكن تقسيمها في قسمين: القوة القاسية أو الصلبة، والقوة الناعمة (ناي، ١٣٩٢هـ.ش، ص ٤٧). تكون القوة الصلبة أو القاسية بمعنى حيازة القدرات العسكرية وامتلاك السلطة السياسية (باليس، ٢٠٠١م، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧)، والقوة الناعمة بمعنى حيازة المكانة الاجتماعية بين الناس والسيطرة على قلوبهم (ناي، ١٣٨٧هـ.ش، ص ١٠٠).

هنا، نسعى إلى تسليط الضوء على القوة الصلبة أو الحكام وأصحاب القوة والسلطة. بشكل عام، أن القوة تعد من المكونات الفعالة على امتداد تاريخ البشر، وتكون مصدر كثير من الأحداث التاريخية. فهي أساس السياسة، حيث تتخذ قرارات ملزمة، وتحمل نتائج طويلة المدى. حين نرجع إلى الرسالة المدروسة، نلاحظ أن اليعقوبي يقول عن أبي بكر، الخليفة الراشدي: «ككان أزهد الناس وأشدهم تواضعا، وتقللا في لباس. ... فلما رأى القوم تواضعه ولباسه نزعوا ما كان عليهم، وذهبوا مذهبه، واقتفوا أثره» (١٩٩٣م، ص ١٩٥). بالنسبة إلى الخليفة الثاني، يشير اليعقوبي إلى هذه السمات والميزات، مؤكدا على أنه «إن رآهم [أي عماله] أو بلغه عنهم غير ذلك أنكره عليهم» (المصدر نفسه، ص ١٩٦). نظرا إلى تقرير اليعقوبي عن السمات الشخصية للخليفتين الأول والثاني، وأثرهما البارز على عمالهما وأمرائهما في كل أرجاء العالم الإسلامي، فمن الواجب أخذ ملحوظتين مهمتين في الاعتبار:

هنا، يرتسم سؤال في الذهن، هو: هل كانت سماتهما الشخصية ذات فاعلية كبيرة في نمط حياط الجمهور، أم أدت الظروف البيئية والمقتضيات الزمنية إلى متابعة الناس لسماتهما وميزاتهما الشخصية؟

نظرا إلى الظروف والملابسات الاقتصادية للمسلمين الأوائل وهيمنة حياة البساطة عليهم، وعدم وجود مظاهر الترف والبذخ، فلم يكن بد للخليفتين الأول والثاني من البساطة في اهتماماتهم وأزيائهم وعاداتهم، الأمر الذي تعضده الشواهد والأدلة التاريخية. زد على ذلك، فإن عصر الخليفة الأول بسبب قربه من العصر النبوي، كان متأثرا كثيرا بنمط الحياة النبوية، حيث لم تكن أمام الناس والعملاء والأمراء سوى متابعة رسول الله (ﷺ). في تعبير آخر، فإن القوة الناعمة التي كان يتحلى بها الرسول، بقيت لمدة بعد رحيله بين الطبقتين العليا والدنيا، وأجبرتهم على متابعتها طوعا أو كرها.

يبدو أيضا أن اليعقوبي في رسالته هذه، وجه جلّ اهتمامه إلى ظاهر سلوك الخلفاء والعمال (غلامي، ١٣٨٨هـ.ش، ص ٢٣٩)؛ هذا بينما أن الدراسة التاريخية لهذه الروايات والتقارير التاريخية، تظهر أن العمال ما كانوا يتابعون السمات الشخصية للخلفاء طوعا بل كانوا يتابعونها إما من باب إرغام نظام الحكم وإجباره، وإما من باب الرياء والنفاق، والاقتراب من نظام السلطة والقوة واعتلاء شأنهم عند الحكام والجمهور. فعلى سبيل المثال، عندما كان يرى الخليفة أن عماله لا يتوافقون معه في الرأي أو لا يتابعون سلوكياته الشخصية، كان يوبخهم ويعاقبهم، الأمر الذي أدى إلى استمرار هذا السلوك بين العمال والأمراء؛ وبالتالي متابعة الطبقات الوسطى من المجتمع لهم. من اللافت أن عمال الخليفة ـ في كثير من الأحيان ـ عندما كانوا يخلعون من مناصبهم، كانوا ينصرفون عن الحياة البسيطة إلى الحياة الأرستقراطية. لقد تجاهل اليعقوبي ملحوظتين مهمتين:

- **أثر استمرار سلوك الخليفة:** ما أثّر استمرار سلوك الخليفة على نمط حياة العمال والناس وسلوكياتهم فحسب، وإنما ترك أثرا مباشرا على رؤاهم ومعتقداتهم، حيث صار مصدر الأفكار والآراء والسلوكيات الجديدة بين العمال والأمراء (غلامي، ١٣٨٨هـ.ش، ص ١٧٣).

- **الفرق بين التبعية الاختيارية والتبعية الإجبارية:** لا نستطيع أن نعتبر متابعة بعض الناس للخليفة أو عامله إجبارا وقسرا، أثر سلوك الطبقة العليا على الطبقة الدنيا؛ لأن متابعتهم لم تتم طواعية واختيارا، وبالتالي ليس لها دوام. في تعبير آخر، فإن متابعة سلوك الخليفة أو الحاكم لا تدوم إلا أن تبقى بين الناس لمدة طويلة حتى تتحول إلى ملكة سلوكية بينهم. بعبارة أوضح، عندما يحرص المجتمع على متابعة السمات والاهتمامات الشخصية للحاكم حتى بعد تخليه عن منصب الحكم، فيمكن أخذ هذه الروايات المبنية على مشاكلة الناس لزمانهم في الاعتبار.

عموما يبدو أن اليعقوبي قد اكتفى بالإتيان ببعض السلوكيات أو الخصائص البسيطة الظاهرة وأثرها في الناس؛ في حين أننا عندما نلقي نظرة تأملية على الطبقة العليا والطبقة الدنيا، نشهد أنه صب اهتمامه على الملبس والمأكل والتفاعلات اليومية عند الناس، وأغفل طريقة تفكيرهم ومعتقداتهم ورؤاهم واتجاهاتهم التي على رغم أنها تؤثر تأثيرا غير مباشر على أذهانهم، إلا أنها تترك آثارا سلوكية ومستمرة في المجتمع. فعلى سبيل المثال لا الحصر، نشير إلى نموذج واحد من هذه التأثيرات، هو تغيير الرؤية إلى الجهاد.

في العصر النبوي، كان يتوجه الناس والجنود إلى ميادين الحرب للجهاد في سبيل الله وابتغاء وجه الله، وكان يعتبر كثير منهم هذه المجاهدة هي متابعة الرسول. بعد رحيل الرسول واستيلاء الخلفاء والأمراء والقواد على مقاليد الحكم، مال الناس إلى كسب الغنائم، حيث تبدل الجهاد في سبيل الله إلى طريق لكسب المال والحصول على الثروة والغنيمة. دون شك، أن هذه الرؤية لم تتغير دفعة واحدة ولم تكن نتيجة الإجبار والقسر، بل تغيرت تدريجيا على مرور الزمن وكانت نتيجة سلوك القواد والعمال والخلفاء. دون شك أن نتيجة هذا التأثير كانت أكثر بكثير من المؤثرات الظاهرية، نحو الملبس والمطعم، لدرجة أن علي بن أبي طالب عندما يخوض في معركة الجمل، كأول معركة بعد تسلمه للخلافة، يواجه جماعة كثيرة من الناس، يحرصون على نهب جيش العدو وجمع المال والحصول على الغنائم، وحتى يستاؤوا منه عندما يمنعهم من نهب جيش العدو وسلبه. فيدل ذلك على أن رؤية جيوش الإسلام إلى الجهاد في سبيل الله تغيرت على المدى البعيد. هذا من جانب، ومن جانب آخر، إن عدم الاهتمام بالجهاد باعتباره قيمة دينية، واتساع رقعة الدين الإسلامي، مما أدى إلى ترسيخ وتعزيز هذه الرؤية الجديدة في المجتمع، لدرجة أن الخليفة الراشدي الثالث عندما «ولّى عبد الله بن عامر البصرة وولى سعيد بن العاص الكوفة، كتب إليهما: أيكما سبق إلى خراسان، فهو أمير عليها» (يعقوبي، ١٣٧١هـ.ش، ج ٢، ص ٥٩).

دون شك، أن هذا السلوك ما كان يحرض جيوش المسلمين على توسيع الحدود الإسلامية، بل كان يحثهم على فتح البلدان الأخرى واكتساب الغنيمة والثروة، لدرجة أن الجهاد في سبيل الله تبدل شيئا فشيئا إلى أداة لكسب المال والحصول على الثروة والعيش في الرفاهية. ونتيجة ذلك، نشهد أن سلوكا فعالا ولو كان صغيرا، من قبل الخليفة وعماله قد ترك أثرا معنيا في رؤية الناس العاديين إلى المعارف الدينية، بحيث أن عملا دينيا نحو الجهاد في سبيل الله تحول إلى وسيلة لكسب المال والثروة والسعي وراء الملذات الدنيوية.

٦-٢. مدة دوام قوة الحاكم وسلطته

من المكونات التي أشار اليعقوبي إليها في رسالته بصورة عابرة، دون أي تركيز، هو طول مدة خلافة الأشخاص وسيادتهم. يرى اليعقوبي أن هذه المكونة لها أثر مباشر على مدى تأثير السيادة والقوة، بحيث يقول عن يزيد بن الوليد بن عبد الملك: «لم تطل أيامه فتعرف أخلاقه ومذهبه» (١٩٩٣م، ص ١٩)، أو يقول عن المنتصر بن المتوكل: «لم تطل أيامه فتعرف مذاهبه، غير انه كان بخيلا» (المصدر نفسه، ص ٣٧). نستنتج من هذين التقريرين، أن مدة الخلافة أو الحكم كان لها أثر في الناس ونمط حياتهم.

ومن أسباب ذلك هو أن سرعة التغيرات والتطورات بسبب غياب المرافق ووسائل التواصل الاجتماعي كانت بطيئة للغاية، حيث إن خبر وفاة الخليفة ووصول الخليفة التالي إلى سدة الحكم كان يستغرق عدة شهور، حتى يصل إلى الأماكن النائية عن العاصمة الإسلامية، وبالتالي فإن الخلفاء الذين ما طالت أيام حكمهم، ما كان يسمع الناس منهم في الأماكن البعيدة خلاف أهالي العاصمة، إلا خبر مجيئهم وذهابهم.

ولكن لا يفوتنا أن مدة استيلاء الحاكم على مقاليد الحكم، ما كان لها أثر بالغ الأهمية في مدى تأثير الخلافة على نمط حياة الجمهور، وذلك خلاف عمق قوة ونفوذ الخليفة، والذي كان عاملا حاسما في مدى تأثر الناس به؛ فمثلا أن يزيد بن معاوية،

على رغم من أن فترة حكمه كانت ثلاث سنوات، إلا أن سلوكه الهمجي وميله إلى سفك الدماء بقي بين عماله لعدة سنوات، حيث لا نعدو الصواب إذا قلنا إن الحجاج بن يوسف كان حصيلة خلافته القصيرة.

الخاتمة

توصلت المقالة إلى ما يلي:

أن نظرية مشاكلة الناس لزمانهم، تشير إلى تاريخ الخلفاء ومواقفهم واتجاهاتهم واهتماماتهم، ونشوء البدع بين المسلمين، والتطورات والتغيرات التي مرت بها المجتمع الإسلامي، ومن جهة أخرى، تتناول أسباب هذه التطورات والتغيرات بين المسلمين. بذلك فإنا من جهة نواجه التاريخ والتقارير التاريخية، ومن جهة أخرى نواجه التحاليل والدراسات السيكلوجية. إذن، من المستحسن أن ندرس هذه الرسالة في إطار علم الاجتماع التاريخي. يقوم منهج اليعقوبي في نظريته، على جمع المعلومات والبيانات في المجالين المختلفين: الأول المقولات أو القضايا التي كانت شائعة بين المسلمين عن أفعال الخلفاء وأقواله وأخلاقه؛ والثاني أفعال المسلمين وأقوالهم وأخلاقهم. في الحقيقة أن اليعقوبي لم يواجه صعوبات كثيرة في جمع المشهورات التي تدل على أفعال الخلفاء وأقوالهم وأخلاقهم؛ ذلك لأن هذه المقولات في نظريته، بغض النظر عن صدقها أو كذبها، وبسبب كونها مشهورة، قد صارت مصدر التأثير بين المسلمين. أما في مجال جمع التغيرات والتطورات التي قد طرأت في نمط حياة الجمهور، والسلوكيات السياسية والاجتماعية للمسلمين ومعتقداتهم، ونظرا إلى منهج اليعقوبي في جمع المعلومات والبيانات (وثاقة الرواة، وتعدد الرواة، وقياس المقولات والقضايا)، فلابد لنا من الثقة به وتقاريره؛ إلا أن نعثر على التقارير أو الشواهد المغايرة لها. إن نظرية اليعقوبي، على رغم من أنها تتشابه مع المقولة المشهورة: «الناس على دين ملوكهم»، إلا أن الأولى تركز فقط على متابعة المسلمين للخلفاء (ملوك الإسلام)، أن الحد الذي وضعه في الموضوع ومدلول مقولته، له أثر مجدٍ في تحليلها وتقييمها.

فيما يتعلق باختبار صحة نظرية اليعقوبي، وفي الإجابة عن المتغيرات المؤثرة والمباشرة لها، استنتجنا أن نظريته لها متغيران أساسيان: قوة سيادة الخليفة ونفوذه الاجتماعي، بسبب مكانته المرموقة؛ ذلك لأن الخليفة كان خلف رسول الله، وبالتالي فكان يحظى بمكانة الرسول العالية بين المسلمين. في الحقيقة، أن الخليفة ما كان مثل الساسانيين ذوي الصفات الإلهية، فهو كان مجبورا على أن يقتفي أثر الرسول، وأن يرتبط بالطبقات المختلفة من المسلمين، وأن يكون قدوة المجتمع الإسلامي وأسوته، الأمر الذي أدى إلى ظهور المتغير الثاني، يعني متابعة المسلمين للخليفة. فإن تأثر المسلمين بالخليفة ومتابعتهم له، مما كان يتوقف على أن يوصف الخليفة بأنه خلف الرسول. فإن وجود هذا المتغير كان يؤدي إلى أن يمس تضاؤلُ مكانة الخليفة أو عزله عن منصب الخلافة، باعتباره خلف رسول الله، بمتابعة المسلمين له، وأن يلجأ نظام الخلافة إلى الأدوات والوسائل الأخرى لتوفير الشرعية اللازمة للخليفة، وأن يتمسك بالقوة القهرية في كثير من الأوقات.

المصادر والمراجع

أ. العربية

الإربلي، أبو الحسن علي بن عيسى. (١٣٨١هـ). كشف الغمة. تبريز: مكتب هاشمي.

البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى. (١٣٩٧هـ). أنساب الأشراف. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

الحراني، أبو محمد الحسن بن علي. (١٣٨٤هـ). تحف العقول. طهران: إسلامية.

الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر. (١٤١٧هـ). الفائق في غريب الحديث. بيروت: دار الكتب العلمية.

المجلسي، أبو عبد الله محمد باقر. (١٤٠٤هـ). بحار الأنوار. بيروت: مؤسسة الوفاء.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. (١٤٠٩ه). مروج الذهب ومعادن الجوهر. قم: دار الهجرة.
المظفر، محمد رضا. (١٣٧٧هـ.ش). المنطق. قم: إسماعيليان.
المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد. (١٤١٣هـ). «الإفصاح في الإمامة». المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد.
اليعقوبي، أبو العباس أحمد بن إسحاق. (١٤٢٢ه). البلدان. بيروت: دار الكتب العلمية.
ـــــــــــ. (١٩٩٣م). مشاكلة الناس لزمانهم. جامعة قطر: مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية.

ب. الفارسية

ارجینی، حسین. (١٣٨٤هـ.ش). «آسیب‌شناسی نظام‌های سیاسی و نظام سیاسی مطلوب از دیدگاه افلاطون». مجله معرفت. ش ٩٠. ص ٣٦ ـ ٤٤.
ارسطو. (١٣٦٤هـ.ش). سیاست. ترجمه حمید عنایت. چ ٤. تهران: سپهر.
خطیب، سیدعبدالرحیم. (١٣٩٤هـ.ش). شیخین. تهران: احسان.
غلامی، یوسف. (١٣٨٨هـ.ش). پس از غروب. قم: نجم الهدی.
فلاح رفیع، علی. (١٣٨٣هـ.ش). «تأملات فلسفی ارسطو در باب سیاست». مجله معرفت. ش ٧٩. ص ٩ ـ ٢٤.
مطهری، مرتضی. (١٣٧٧هـ.ش). مجموعه آثار. تهران: صدرا.
منتظری مقدم، حامد. (١٣٨٣هـ.ش). «یعقوبی و نظریه هم‌شکلی با حاکمان». مجله تاریخ در آینه پژوهش. ش ١. ص ١٨٥ ـ ٢٠٨.
نای، جوزف. (١٣٩٢هـ.ش). آینده قدرت. ترجمه احمد عزیزی. تهران: نی.
ـــــ. (١٣٨٧هـ.ش). قدرت نرم. ترجمه سید محسن روحانی و مهدی ذوالفقاری. تهران: امام صادق.
یعقوبی، ابو العباس احمد بن اسحاق. (١٣٧١هـ.ش). تاریخ یعقوبی. ترجمة محمد ابراهیم آیتی. تهران: شرکت علمی و فرهنگی.

ج. الإنجليزية

باليس

Baylis, John. (2001). *International and Global Security in the Post-cold War Era, in The Globalization of world Politics: An Introduction to International Relations*. Oxford University Press.

References

Aristotle. 1364 Sh. *Siyāsat*. Translated by Hamid Enayat. Tehran: Sepehr.

Arjini, Hossein. 1384 Sh. "Āsībshināsī-yi niẓām-hāyi siyāsī va niẓām-i siyāsī-yi maṭlūb az dīdgāh-i Aflāṭūn." *Maʿrifat*, no. 90: 36-44.

Balādhurī, Abū al-Ḥasan Aḥmad b. Yaḥyā al-. 1397 AH. *Ansāb al-ashrāf*. Beirut: Muʾassasat al-Aʿlamī li-l-Maṭbūʿāt.

Baylis, John. 2001. *International and Global Security in the Post-cold War Era, in The Globalization of world Politics: An Introduction to International Relations*. Oxford: Oxford University Press.

Fallāḥ Rafīʿ, ʿAlī. 1383 Sh. "Ṭaammulāt-i falsafī-yi Arasṭū dar bāb-i siyāsat." *Maʿrifat*, no. 79: 9-24.

Gholami, Yousef. 1388 Sh. *Pas az ghurūb*. Qom: Najm al-Hudā.

Ḥarrānī, Abū Muḥammad al-Ḥasan b. ʿAlī al-. 1384 AH. *Tuḥaf al-ʿuqūl*. Tehran: Islamiyya.

Irbilī, Abū al-Ḥasan ʿAlī b. ʿĪsā. 1381 AH. *Kashf al-ghimma*. Tabriz: Maktab Hāshimī.

Khatib, Seyed Abdorrahim. 1394 Sh. *Shaykhayn*. Tehran: Ehsan.

Majlisī, Abū ʿAbd Allāh Muḥammad Bāqir al-. 1404 AH. *Biḥār al-anwār*. Beirut: al-Wafa Institute.

Masʿūdī, Abū al-Ḥasan ʿAlī b. al-Ḥusayn al-. 1409 AH. *Murūj al-dhahab wa-maʿādin al-jawhar*. Qom: Dār al-Hijra.

Montazeri Moghadam, Hamed. 1383 Sh. "Yaʿqūbī va naẓariyyih-yi ham-shiklī bā ḥākimān." *Tārīkh dar āyinih-yi pazhūhish*, no. 1: 185-208.

Motahari, Morteza. 1377 Sh. *Majmūʿih āthār*. Tehran: Sadra.

Mufīd, Abū ʿAbd Allāh Muḥammad b. Muḥammad al-. 1413 AH. *Al-Ifṣāḥ fī al-imāma*. Qom: World Congress for al-Shaykh al-Mufīd.

Muẓaffar, Muḥammad Riḍā al-. 1377 Sh. *Al-Manṭiq*. Qom: Ismāʿīliyān.

Nye, Joseph. 1387 Sh. *Qudrat-i narm*. Translated by Seyed Mohsen Rouhani and Mahdi Zolfaghari. Tehran: Imam Sadiq.

Nye, Joseph. 1392 Sh. *Āyandih-yi qudrat*. Translated by Ahmad Azizi. Tehran: Ney.

Yaʿqūbī, Abū al-ʿAbbās Aḥmad b. Isḥāq al-. 1422 AH. *Al-Bildān*. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

Yaʿqūbī, Abū al-ʿAbbās Aḥmad b. Isḥāq al-. 1993. *Mushākalat al-nās li-zamānihim*. Doha, Qatar: University of Qatar, Center for Human Studies and Documents.

Yaʿqūbī, Abū al-ʿAbbās Aḥmad b. Isḥāq. 1371 Sh. *Tārīkh-i Yaʿqūbī*. Translated by Mohammad Ebrahim Ayati. Tehran: Shirkat-i ʿIlmī va Farhangī.

Zamakhsharī, Abū al-Qāsim Jār Allāh Maḥmūd b. ʿUmar al-. 1417 AH. *Al-Fāʾiq fī gharīb al-ḥadīth*. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.